روح

شيماء البكري

على حافة السرير تعتمد القرفصاء وكأنها جرادة تحتل قمة جبل من هموم.. .وجهها الشاحب يخبر عن ضياع الجمال فى مطحنة حياتها.. لا تتحرك.. ثابتة تنظر لشىء تراه هى فقط.. أما المرضات فقد ضقن ذرعا أن يجعلنها تتمدد.. أوردة قدمها نفرت بشدة من قوة الضغط عليها فى هذه الجلسة العجيبة.. عينها بها من الشر وكأن إبليس ذاته نقل عرشه لها.. وفمها يلوك أجزاء من شفاهها الداخلية مما يؤدى لسيلان الدم على حواف فمها المتقرح..

يدخل الطبيب يحاول جاهدا أن يجعلها تتحدث.. فتدير له رأسها وتنظر فى عينه فيتراجع للوراء هلعا ويخرج آمرا حارس الغرفة أن يتوخى الحذر.. متى سينتهى من هذه المريضة لينفذ فيها حكم الإعدام ويرتاح..

صديقه الذى هو زوجها.. وعده بمكافأة كبيرة إن جاء هذا اليوم وتخلص من حسناء.. التفاصيل لا تهم أبدا.. المبلغ مغرٍ وفى النهاية هى مجرد قاتلة وتستحق.. . يرجع لمكتبه يقلب ملفها.. أربع سنوات على هذه الحال والقضاء لا يستطيع البت فى الحكم لأنها مريضة نفسيا..

حسناء عامر المهدى.. .السن خمسة وثلاثون عاما.. الحالة فصام بارانوى واكتئاب سوداوى.. .

مسجلة خطر لجريمة قتل منعت منعا باتا من الزيارات..

ثلاث سنوات والحالة تنتكس أكثر وأكثر.. .شيء ما غامض فى هذه الحالة.. بعد جلسات الكهرباء تنتابها ضحكات ساخرة وتردد اسما واحدا.. روح.. . ثم تخرج صورة أشعة لجنين وتقبلها وتنام مايقارب اليوم كاملا.. . .

كاد الطبيب أن يغلق الملف وهو مستفز من عجزه عن فك شفرة هذه المريضة، لكن يده خبطت فى فنجان قهوته لتنسكبت على الملف.. وهو مفتوح على معلوماتها التعريفية رفع بسرعة الملف من على سطح المكتب وبعض الأوراق الهامة وراح ينفضها من القطرات البنية.. . نادى فى غضب العامل ليصلح الفوضى ويقوم بتنظيف المكان.. ثم عاد الطبيب ليجلس على المكتب مرة أخرى.. وفتح الملف ليصعق.. كل المعلومات ممسوحة.. كيف؟! يستحيل أن تكون القهوة فعلتها.. أمر بفنجان آخر وسكبه عمدا على أحد الأوراق غير العامة لكن لم يمسح الحبر منه! كاد الطبيب أن يجن.. لولا أنه تذكر أن جهاز الحاسوب يحمل ملفًا لها.. هدأ هذا من روعه وأمر بإعادة طبعه.. لكن تبقت فزعة الغموض.. .دقت ساعة نهاية عمله لهذا اليوم أخذ الملف الفارغ إلا من أثر بنى على ورقة لمنزله.. دخل المنزل.. فوجد زوجته تبكى.. ويدها مدهونة بمرهم..

- ماذا بك حبيبتى ؟

أجابته:

- كنت انتظرك يا روحى وذهبت لصنع فنجان من القهوة حتى لا أغفو لتجدنى حين تعود للمنزل متيقظة لك.. لكن لا أعلم حقا كيف استدارت (الكنكة)بهذا الشكل من على (السبرتايه) وانسكبت على يدى.. . ثم ظهرت انتفاخات غريبة وكأنها حروف مخطوطة.. . انظر.. أخذ الطبيب يدها.. . ليجد اسما يعرفه جيدا.. .حسناء.. .ردد الطبيب من صدمته الاسم وهو ينظر ليد زوجته التى سحبتها منه وصرخت منزعجة والغيرة أنستها ألم الحرق.. من هذه؟أهى

حبيبـــة ســـابقة تتخيل اسمها على يـــدى!! ضم الطبيـــب الزوجة وأجلســـها.. ثم قال وهو يمد يده الأخرى بالملف.

- هذه صاحبة هذا الملف يا حبيبتى.. .

نظرت الزوجـــة فى بلاهة !! وفتحت الملف لتجـــده فارغا إلا من أثر انسكاب القهوة.. وقبل أن تبدأ فى الثرثرة والسؤال أغلق فمها بيده وقال:

أرجوكِ يا حبيبتى لا أحتمل أى شك الآن.. أنا أمام لغز محير..

اتسعت حدقة الزوجة لتخبر عن شيء هام.. لقد تذكرت الظرف المريب الذى وصل للبيت لزوجها اليوم وهو فى عمله.. ذهبت وأحضرته وقالت:

- هذا لك..

كان الظرف ملطخا بشـــيء أحمر قانى مقزز.. ومحكم الإغلاق.. أخذه الطبيب ودلف لغرفته مغلقا الباب خلفه غير مكترث لحديث زوجته التى أغلق فى وجهها الباب.. حاول فتحه لكنه كان يابسا جدا مما أدى لأن يحضر مقصا ويقص أحد حواف الظرف.. لينفجر مكان القص دما ويسمع أنينا للظرف وكأنه كائن حي!!

انتفض الطبيب وألقى من يده الظرف على الســـرير.. لكن محتوى الظرف كان بالفعل خرج منه.. .قلب.. .مبطط الكتلة وكأنه مدهوس بعربـــة.. مازال ينبض.. ويتلوى.. فتح الطبيـــب الباب وهرب من هول الرعب لكنه انزلق لتصدم رأســـه بأحد الأرفف ويسقط والدم ينساب من رأسه.. هرولت الزوجة لتولول وتحاول أن تنقذ زوجها.. ثم قامت ودخلت

الغرفة لـــترى ماذا جعل زوجها يرتعب هكذا!!.. لتجد القلب بمشـــهده السابق وصفه.. .صرخت وأغمى عليها..

***

فى اليوم الثانى لم يحضر الطبيب للعمل.. .أما عن حســـناء فكانت عجيبة جدا.. تبتســـم.. وتتناول طعامهـــا.. وتلاعب خيالا.. تضاحكه وتنادى عليه بالاسم المعتاد.. روح..

والممرضات ينادين بعضهن البعض غير مصدقات..

يتهامســـن من اســـتغرابهن.. فوجه حســـناء كان حقا تظهر عليه النضارة..وفرحتها تبث الســـعادة حولها..

حتى كشفت عن صدرها وألصقت الوسادة به وهى تمسد على طرفها وتقول:

- ارضعى ياطفلتـــى.. ارضعى من أمك وســـامحينى لقد تركتك جائعة وقتا طويلا منـــذ أن قتلتك وأنا لم أطعمك...الى أن نامت وهى جالســـة متخذة وضع الرضاعة محتضنة الوســـادة بكل حرص حتى لا تسقط منها.. .

تقدمت أحد الممرضات لتغطى ثديها المكشوف وتسحب المخدة من بين ذراعها بهدوء..

لأول مرة تنام حسناء هكذا دون نوبات...

***

اليوم الثانى أيضا لم يحضر الطبيب.. .فكان لابد أن يستلم مكانه آخر.. .حتى تظهر أخبار عنه..

وحسناء تتحسن أكثر.. حتى صارت تستحم وتمشط شعرها .

دار الطبيب الجديد دورة استكشافه بعد أن أخذ نبذة عن كل مريض.. وحين مر على غرفة حسناء.. طلبت منه أن يقترب منها.. ثم همست فى أذنه:

- ألم يحن وقت الخلاص بعد؟

تعجب الطبيب ولكنه قال فى محاولة حوار له معها:

- وكيف الخلاص ؟

أجابته:

- أن اعاقب على جريمتى.. وينفذ الحكم فىَّ..

ابتسم الطبيب مربتا على كتفها بقليل من الخوف والحيرة.. ثم استدعى أحد الممرضات وطلب منها جهاز التسجيل.. وعاد لحسناء.. وأكمل حديثه معها.. بطريقة المحقق

وهل تعلمين جريمتك يا حسناء؟

اعتدلت حسناء فى جلستها وقالت:

- وهل أبدو لك مجنونة حتى لا أعلم؟

وازاحت بحركة غرور شعرها الجميل للخلف..

كتم الطبيب ضحكته.. واستدرك:

- وماهى ياعزيزتى ؟

قامت حسناء من مكانها وفتحت أزارير قميصها الأبيض.. وقالت:

- تعال أيها الطبيب انظر..

توجس الطبيب.. لكنـــه يعلم أنه يخاطب عقلية لا تدرك ماتفعله.. اقترب ونظر بالفعل.. ليجد صورة الأشعة التلفزيونية للجنين ملتصقة فى أسفل نحر حسناء..

سألها:

- ماهذا ؟

أجابت:

- إنهـــا روح.. .ابنتى.. لقد قتلتها.. . .لكنى ســـأهب روحا جســـدا قويا.. جســـدى.. أترى كيف أســـتطيع القفز والتحرك.

وصارت تفعل الحركات البهلاونية أمامه..

صفق لها الطبيب مصطنعا التشجيع:

- بالفعل ياحســـناء جسد مرن.. لكن أخبرينى لماذا قتلتها.. (وتأكد الطبيب وقتها أن المسجل يعمل)

نظرت له حسناء ثم ابتسمت ومدت يدها فى سرعة لتخطف التسجيل من يده وتقربه من فمها.. .

وتقول: لقد كانت تذكرنى كل وقت بأبيها..

جمعت تلك الطفلة كلتا متضاد مشاعرى.. أكرهها حد القتل.. وأحبها حد الجنون.. فـــى كل ثانية كنت أسمع صوتا يخبرنى انه ما من وسيلة لخلاصى إلا قتلها..

هل ترى شعرى.. يوم حملت بروح.. دميت فروة رأسى.. . لقد سحبنى زوجى لمخدعه مثلما تساق الشاة للذبح.. .وبعد افتراسى ظل مثل حيوان قذر فرح بتعذيب ضحيته...يوم ولادتها.. .لا أذكره.. كل ماأذكره أن ومضات من مشـــهد صراخى ودماء تســـيل وأصوات.. و..و.. ثم بدأت حسناء تنهج بشـــدة وهى تحاول تذكر الأحداث.. طلب الطبيب حقنة مهدأة.. وأخبرها أن تستريح.. لكن حسناء تعلقت فى ذراعه وتوسلت له أن تكمل.. كانت عين حسناء لا تقف عن الدمع أمطارا..

وشـــفاهها زرقاء ترتجف وهى تكمل كلامها بشكل هستيرى متقطع الجمل.. تسحب نفســـها من صدرها فيصدر حشرجة وتقول : لم أكن أحبه ابـــدا.. رائحته.. صوته.. غروره.. وعلاقاته.. وشـــذوذه ضعفى الذى أجبرنى ان اظل ســـنين تحـــت طوعه..الله وحـــده يعلم كم من الأهوال عشت.. ساعدنى أرجوك كى أتذكر أكثر.. .أخبرنى عن من أنا كاملة..

ثـــم انقضت علىَّ الطبيـــب بعصبية وهى تصرخ: أريـــد التفاصيل.. أريـــد معرفة أحداث ذلك الجزء المظلم فـــى دماغى لقد كنت لا أنوى قتلها صدقنى... احتواها الطبيب وأوصلها لســـريرها ثانية وهو يمسد شـــعرها.. بدت كأنها ستهدأ لكن ضحكت فجأة وصار زبد أبيض يخرج

من فمها ويفور.. نادى الطبيب فى سـرعة على أشـد معاونيه.. .كان لابد من جلسة كهرباء فى هذه الحالة.. رجعت بعدها حسناء لغرفتها كعادتها كئيبة مريبة

والجديد أنها صارت تخط طلاسـم عجيبة كل ليلة على الجدار بأى شيء يقع فى يدها وإن لم تجد تجرح نفسها وتخط بدمها.

***

فى صباح اليوم التالى.. حالة حزن تخيم على المشـفى.. فقد عرف الجميع أن الطبيب الأول قد لقى مصرعه هو وزوجته فى ظروف غامضة.. كتبت بعض الصحف عن شـيء يوجه الاتهام لبعض عصابات سـرقة الأعضاء الهمجيـة.. وخاصة أنهم وجدوا قلبيهمـا (الطبيب وزوجته) منزوعين من صدريهما.. .

لم يقطع حالـة الحزن هذه إلا صرخات حسـناء وهى فوق الدولاب بغرفتها.. ركض الطبيـب لغرفتها ليراها..

كانت تخاطب شيئا فى السقف فى زاوية الغرفة !!

تلعن تارة وتتوسـل أخرى.. تظهر بعض الجمل فى حديثها مثل: لا يكفينى انتقامك من صديقه.. أريد رأسـه هـو.. لقد أخبرتنى أنك تعشـقنى.. أخبرتنى أنك رهن إشـارة طلباتى.. أقنعتنى أن قتلها هو الشـيء الوحيد الذى سيجعلها ترحم من شر والدها ومن شرى وستظل طاهرة.. ليس عدلا أن أحاكم وحدى وبادئ الظلم يظل يستمتع فى حياته

لا لا.. لن أكـــون ملكا لك إلا وذلك الحقير زوجى قد لقى عقابه كما وعدتنى.. . .أتت زمجرة من زاوية الغرفة قوية جدا جعلت الممرضات وحراسة الغرفة يفرون..

انفعلت حســـناء أكثر لترفس بقدميها على ســـطح الدولاب الذى هوى مكســـورا واخترقت أحد خشـــباته منتصف صدرهـــا على الفور.. وبعد الهدوء.. تجرأ الطبيب ودخل.. أمســـك ذراعها الخارج من حطام الـــدولاب.. ليجد النبـــض صمت تماما.. أتى الممـــرض بحمالة لحمل الجثة..

لا شـــيء يتوقف على موت أحد.. تم إخراج تصريح الدفن قبلها بعد حضور أحد من الجنايات لمعاينة الحادثة..

دخلت العاملات ينظفن الغرفة ويجهزنها فى استقبال

المريـــض القادم او المريضة.. .ليجدوا دفترا مدسوســـا بين الســـرير والمرتبـــة.. فى صفحته الأولى صورة حســـناء مع ابنتهـــا روح.. وباقى الصفحات على التوالى صفحة مكتوب بها أحبك.. وصفحة أكرهك.. حفظ ملف حسناء ليومنا هذا.. مبهما.. غامضا.. لا أحد يعرف كيف يحل ألغاز قصتها وما كان يـــدور حولها.. لكن المؤكد أن هناك رباطا وثيقا بين المرض النفســـى.. .والعالم السفلى.

***